وصف مكة ومظاهر الحج في رحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيما (٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م)

أ.د. إبراهيم محمد حمد المزيني
كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تأتي مكة المكرمة في قمة المدن التي تهفو لها نفوس العلماء والباحثين، ويزداد حولها فضول الرَّحالة عبر عصور التاريخ لزيارتها والوقوف على أسرارها ومكنوناتها، وكان من بين هؤلاء الرَّحالة لفيف من الأوربيين الذين قُدّر لهم زيارتها وتسجيل مشاهداتهم وملاحظاتهم حولها مع تعدّد دوافعهم وأهدافهم.

ويأتي المستشرق الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما (Ludovico Bartema) الذي أطلق على نفسه اسم (الحاج يونس المصري) في طليعة هؤلاء وباكورة جهودهم، وهو أوّل رحالة أوربي تطأ قدماه مكة حسب إشارة المصادر، وقد وثَّق فارتيما هذه الرحلة في كتابه.

وهذا ما تحاول هذه الورقة التركيز عليه محاولة لاستجلاء أبعاد رحلته إلى الحج ووصف مكة ومظاهر الحج ضمن رحلاته في محاولة علمية نقدية أشارك فيها ضمن بحث علمي مقدم للملتقى العلمي الثامن عشر لأبحاث الحج والعمرة والزيارة في معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة بجامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، ومن التزم هديه وسار على نهجه إلى يوم الدين... أما بعد: فإنَّ هناك مجموعة من المدن والمواقع الدينية والاستراتيجية تجتذب إليها أنظار الزائرين والدارسين، وتتوق إليها نفوسهم ويشدون إليها الترحال، وكلٌّ حسب هدفه ومقصد رحلته.

وتأتي مكة المكرمة في قمة المدن التي تهفو لها نفوس العلماء والباحثين، ويزداد حولها فضول الرَّحالة عبر عصور التاريخ لزيارتها والوقوف على أسرارها ومكنوناتها، وكان من بين هؤلاء الرَّحالة لفيف من الأوربيين الذين قُدّر لهم زيارتها وتسجيل مشاهداتهم وملاحظاتهم حولها مع تعدّد دوافعهم وأهدافهم.

ويأتي المستشرق الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما (Ludovico Bartema) الذي أطلق على نفسه اسم (الحاج يونس المصري) في طليعة هؤلاء وباكورة جهودهم، وهو أوّل رحالة أوربي تطأ قدماه مكة حسب إشارة المصادر، وقد وثَّق فارتيما ذهابه إلى مكة المكرمة للحج، وكانت نقطة البداية لرحلته من مدينة دمشق في عام ٩٠٨هـ الموافق لعام ١٥٠٣م عندما ادعى أنه أحد الجنود المماليك المعتنقين للإسلام، وانتحل اسم (الحاج يونس المصري)، ووصف الحج ومكة في كتابه وصف المشاهد المنبهر، فقال عن مكة في بداية وصفها: "سنتحدث الآن عن مكة ذات الشرف الباهر. ماهي؟ وما وضعها؟ ومن يحكمها؟ إنها مدينة رائعة الجمال قد أُحسن بناؤها، وتضم حوالي ٦٠٠٠ أسرة، ومنازلها جيدة تمامًا[١].

(١) فارتيما، لودوفيكو دي. رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) / ترجمة وتعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.- ص ٥١.

وأما بالنسبة لأحوال الحجاج فقد نجح في شرحها بدقة بالغة قائلاً: "وقد وجدنا أعدادًا كبيرة من الحجاج في مكة، أتى بعضهم من إثيوبيا، وبعضهم الآخر من الهند الكبرى India Major، وبعضهم الآخر من الهند الصغرى India Minor، وآخرون من فارس، وطائفة من سوريا، والحق أقول لكم: إنني لم أرَ أبدًا تجمعًا هائلاً احتشد في مكان واحد كما رأيت هنا في مكة خلال العشرين يومًا التي مكثتها في هذا البلد[٢]. ومن اللافت للنظر وصفه للمسجد الحرام وصف المنبر الذي يلفت نظره كل زاوية فيه، ويفصّل في وصف بئر زمزم ووصف الهدي والأضاحي، وحمام الحرم وغيرها مما شده ولم يغفل عنه في وصفه وفقًا لما شاهده، وربما من زاوية رؤيته هو وخلفيته.

وهذا ما تحاول هذه الورقة التركيز عليه محاولة لاستجلاء أبعاد رحلته إلى مكة ووصفها، وكذا وصف مظاهر الحج ضمن رحلاته التي دوّنها في محاولة علمية نقدية أشارك فيها ضمن بحث علمي مقدم للملتقى العلمي الثامن عشر لأبحاث الحج والعمرة والزيارة في معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة بجامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م بعنوان: «وصف مكة ومظاهر الحج في رحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيما (٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م)».

ويأتي من أهم أهداف هذه الورقة: محاولة استطلاع أخبار مكة ووصف مظاهر الحج لدى أقدم الرحالة الغربيين الذين زاروا مكة في موسم الحج، وكيف كانت رؤيته ووصفه لمكة، وشعيرة الحج، ورؤيته للمسجد الحرام وما شاهده ووصفه فيه في زمنه، إضافة إلى وصفه لمظاهر الحج وتفصيلاته وفق رؤيته التي صورها باندهاش وتعجّب، رغم أنه لم يشر إلى مشاركته الحجيج مشاعرهم مما يرجّح تظاهره بالإسلام. وما تمَّ من تناول في هذه الرحلة حول وصف مكة ومظاهر الحج يؤكد أهمية هذه الرحلة وحاجتها إلى المزيد من الدراسة والبحث رغم ما سبق حولها من دراسات رصينة وجادة.

وبداية.. لعله يناسب في مستهل هذه الدراسة أن أشير إلى أنه نظرًا لاتساع المادة العلمية التي يمكن أن تندرج ضمن هذا الموضوع، وحرصًا على حصر مادته بما يناسب الحال، ورغبة في تجنيبه الحشو والإطالة، فقد عمدتُ إلى عرضه وفق المباحث الآتية:

المبحث الأول: رحلات الأوربيين إلى مكة المكرمة:

شهدت الجزيرة العربية بعمومها مجيء عدد من الرحالة الأوروبيين منذ بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وذلك مع بدايات ظهور الإمبراطوريات الغربية والصراع فيما بينها بهدف الاحتلال والسيطرة على أجزاء من العالم الإسلامي في أفريقيا وآسيا، والسيطرة على الممرات المائية الحيوية في البحر الأحمر والخليج العربي وجزر المحيط الهندي بغرض تأمين الحاميات البحرية وقوافل التجارة، ومن تلك القوى البرتغاليّون والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون.

وقد تنوعت أهداف هؤلاء الرحالة، الذين وجدوا الدعم والتشجيع من دولهم، فمنهم من جاء لهدف تبشيري، ومنهم من كانت رحلته لأغراض سياسية واقتصادية، ومنهم من جاء لأهداف علمية وحب للمغامرة والاكتشاف.

وعلى الرغم من هذه الجهود، فقد بقيت مكة لأمد طويل مجهولة لدى هؤلاء الأوروبيين؛ بسبب منع وصول غير المسلمين إليها، ومن ثم كثرت الخرافات حول المدينة المقدسة في كتابات ما قبل العصر الحديث الأوروبية، حتى إذا انطلقت حركة الكشوف الجغرافية بُذلت جهودٌ كبيرةٌ للتنكر للوصول إليها، غير أنَّ عددًا كبيرًا من هؤلاء الزوَّار كُشف أمره، وصارت السلطات الحاكمة في مكة أواخر عصر سلاطين المماليك شديدة اليقظة، بسبب نشاط البرتغاليين البحري وتطلعهم للوصول إلى مكة لأهميتها التجارية والدينية. ومع هذا فقد كان نصيب مكة المكرمة مجموعة من هؤلاء الرحالة ممن نجحوا في الوصول إليها كلٌّ بحيلته وقصده، وسجلوا مشاهداتهم ومعلومات رحلاتهم وآراءهم وانطباعاتهم، وربما ميولهم باختلاف دوافع رحلاتهم بما يستحق منا التوقف عند مجموعة من هذه الرحلات لتأملها ومناقشتها إذ منها ما هو علمي اتسم في غالبه بالموضوعية والإنصاف، ومنهم صاحب التجارة المجايد، ومنهم ممتهن الجاسوسية الذي يقصر اهتمامه حول زوايًا محدَّدة انتدب من أجلها، ومنهم المتعصّب الذي يصدر أحكامه وفقًا لمنطلقه، وكلّ من هؤلاء ينطلق من منطلق ومحرك لرحلته. وتحتفظ كتب الرحلات بمجموعة من هذه الأسماء الذين وفدوا إلى مكة المكرمة بمختلف ميلوهم وأهدافهم يجتذبهم هدف عام يتصف بإرضاء رغبة الاستطلاع وإشباع فضول الاكتشاف لديهم.

---

(٢) رحلات فارتيما.- ص ٥٣،٥٢.

وإذا كانت رحلات المسلمين إلى مكة قديمة ومتكررة، فإنَّ مجموعة من الرحالة الأوربيين أمكن لهم زيارة مكة باختلاف زمن الزيارة وأهدافها، وكان باكورة هؤلاء الرحالة مستشرق إيطالي اسمه (لودفيكو دي فارتيما) الذي نجح في التخفي والوصول إلى مكة والتظاهر بالحج ليسجل مشاهداته وانطباعاته في رحلته التي تعدُّ الأولى من رحلات الأوربيين إليها.

وضمن أدب هذه الرحلات وأهدافها يسجل أسعد فارس رأيه بقوله: "أن أدب الرحلات الغربي وآثار رحلاتهم يعدُّ امتدادًا لحركة الاستشراق والمستشرقين، والاستشراق بحد ذاته هو تراث الإمبراطوريات الغربية التي كانت وماتزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى، وحتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي كانت مرتبطة في السياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة، ونادرًا ما حادت عن أهدافها السياسية بالإضافة إلى الأهداف العلمية[٣].

ولئن مثَّل المشرق العربي والجزيرة تحديدًا مصدر إلهام للعديد من الأدباء الأوربيين، فإن الرحلة إليه كانت حلمًا تتوق نفس الأوربي إلى تحقيقه نظرًا إلى ما نقل عن هذه المنطقة من أخبار، نَسَجَ الخيالُ أغلبَها سواء بعد الحروب الصليبية أو من خلال بعض كتب الأدب والرحلات، أو من خلال ما تناقله التجّار والمغامرون من أخبار تداخل فيها الواقع مع الأسطورة، ومهما يكن من أمر فإنَّ المشرق العربي بقيمته الاستراتيجية له تأثيره المباشر في السياسة والاقتصاد بين طرفي العالم شرقه وغربه سيما في ظل هيمنة الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى وتنافسها على المنطقة، ومن هنا نفهم تعدّد أسباب هذه الرحلات وتنوع أهدافها بين الديني التنصيري، ومنها السياسي والاقتصادي، والعلمي أيضًا[٤].

لقد كان الهدف الديني هو الغالب على رحَّالة القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بداية من رحالتنا (الرحالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما) مبعوث الحكومة البرتغالية إلى كلّ من مصر والشام متظاهرًا بالإسلام، ودخل المدينة ومكة مع الحجاج، ويمكن أن يندرج ضمن هذا الهدف البحَّار البرتغالي (قريقوريو داقودرا) الذي قدم إلى الحج برفقة أمير عدن سنة (١٥١٦م)، والذي كشف مقصده في رحلته، وعاد إلى البرتغال سنة ١٥٢٠م ليلحق بدير من الأديرة هناك[٥].

وما صرّح به بيتربنت في كتابه (رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب) يرسّخ مجموع هذه الأهداف حينما قال: "إن الأشخاص الذين ذكرناهم كانوا العيون والآذان التي استطاع الغرب الحصول بها على المعلومات عن بلاد العرب وشعبها فنحن نرسل الكشّافين ونبني الصّور عن الطريقة التي تسير بها الأمور، ونستعين بالتقارير التي يجلبونها لنا، وحين تتكون لدينا مثل هذه الصور فمن الصعب تغييرها[٦]. ومثل هذه الشهادة تؤكد الأهداف السياسية والاقتصادية لعديد من رحلات الأوربيين إلى الجزيرة العربية حينا اشتد صراع تلك القوى وتنافسها على مصالح المنطقة، وتوافد بعد ذلك مجموعة منهم بقصد صريح أو مضمر أذكر منهم (فينسنت لو بلانك، ويوهاند وايلد، وجوزيف بيتس، وباديا ليبلش، وياسبر سيتزن، وبوركهارت، وجيوفاني فيناتي، وليون روشيه، وجورج أغسطس والين، وغيرهم كثير)[٧].

ومهما يكن من أمر هذه الرحلات وتفاوت أهدافها ومقاصدها وغاياتها، إلا أننا لا ننكر تلك القيمة التاريخية للنصوص والمشاهدات التي سجلوها ضمن رحلاتهم، والتي يمكن أن نستخلص منها مجموعة من الفوائد والمعارف والمعلومات، وهي مجالات خصبة للدراسة والتحقيق والتمحيص لما تحويه رحلاتهم من معلومات تختلط فيه الانطباعات بالعواطف والميول بتخالط المعتقدات، فكان لزامًا الالتفات لهذا النتاج لتصحيح ما ورد فيه مما يغالط الحقائق عن تاريخ مكة والمدينة ومكانتها الشامخة، ولعل اختياري لرحلة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما بتفاصيلها أنموذجًا لهؤلاء الرحالة ستكشف لنا مثل هذه المقاصد وغيرها، وبخاصة بما يتصل بوصف مكة ومظاهر الحج من هذه الرحلة، وهو ما ستعرض له هذه الورقة في المباحث الآتية.

---

(٣) فارس أسعد عيد. الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، دراسة ضمن: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ط١، الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ، ص ٥٥٧.

(٤) محمد بن عبد الهادي الشيباني. أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية ضمن: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ط١، الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ، ص ٥١٥-٥٥٣.

(٥) عبد الرزاق بن حبيب الحمامي. المدينة المنورة والرحالة الأوربيون (دراسة نماذج)، ط١، المدينة المنورة: سلسلة إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ المدينة المنورة، ١٤٣٦هـ(٢٠١٥م)، ص ١٣-١٤.

(٦) عبد الرزاق الحمامي. المدينة المنورة والرحالة الأوربيون، ص ١٤-١٥.

(٧) أرفقت لهؤلاء وغيرهم جدولاً في ختام البحث للاستزاده.

المبحث الثاني: حياة فارتيما:

ومهمٌ أن أشير ابتداءً إلى أنه على الرغم من أهمية هذه الرحلة التي دوّنها الرحالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما (الحاج يونس المصري) إلا أننا لا نكاد نعرف عن حياته سوى النزر اليسير، إذ أنَّ المعلومات المتوافرة عنه قليلة ونادرة وخاصة عن بدايات حياته الأولى كالولادة والنشأة، فمصادر التراجم الأجنبية والعربية لم تحدد لنا بدقة مكان ولادته وسنتها، سوى ما ذُكر في الموسوعة البريطانية من ترجيح سنة مولده بين سنتي ١٤٦٥ - ١٤٧٠م الموافق (٨٦٩ - ٨٧٤ هـ)[٨].

وهو ما أكده المستشرق الإنجليزي بيرسي بادجر(Badger)[٩] من أنه لا يعرف عن حياة فارتيما سوى القليل ومن خلال اطلاعه على المراجع الإنجليزية والإيطالية والفرنسية التي يحتمل وجود شيء فيها عنه، وأوضح أنَّه لم يجد فيها شيئًا يذكر، وقد بيَّن بادجر أنَّه لم يجد في موسوعة التراجم العالمية في القديم والحديث المطبوعة في باريس سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٧م)، إلا نصًا قصيرًا عن فارتيما لم يستوضح منه سوى أنه رحالة إيطالي قام برحلته في القرن السادس عشر الميلادي الموافق للقرن العاشر الهجري دون تحديد السنة، وقد تعجب بادجر من أنَّ المراجع التي كتبها المؤلفون الإيطاليون أغفلت ذكر فارتيما رغم أهميته، وأعطى لذلك أمثلة منها المؤلف الإيطالي زورلا (Zurla) حيث إنَّه لم يذكر فارتيما ضمن أشهر الرحالة الإيطاليين في كتابه الذي نشر في البندقية سنة ١٢٣٣هـ (١٨١٨م)، أما المؤرخ الإيطالي فانتوزي(Fantuzzi) فلم يتعرض لفارتيما إلا من خلال أسطر قلائل شكا في مطلعها من قلة المعلومات عنه، وأنهاها بالتشكيك في عودته إلى إيطاليا[١٠]. ويعلّل مترجم رحلته إلى اللغة العربية من اللغة الإنجليزية عبدالرحمن الشيخ ذلك بقوله: "أنَّ فارتيما لم يكن فيه من إيطاليا سوى أنها موضع مولده، ومصدر لغته، أما فيما عدا ذلك فالرجل كان يعمل لحساب ملك البرتغال، الذي موّل رحلته، والذي قدّم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفروسية، وضمه لجيوشه المحاربة أحيانًا، لذلك فبعض المصادر تشير إلى أنه رحّالة برتغالي، تمامًا مثل كولومبس الذي تعارف الناس أنه رحالة إسباني مع أنه من أصول إيطالية[١١].

ويضيف عبدالرحمن الشيخ قائلاً: "إنَّ إهمال المؤرخين الإيطاليين لفارتيما عند حديثهم عن رجالات وطنهم ليس أمرًا مستغربًا، فالرجل يكاد يكون غير إيطالي"، حيث عرف بأنَّه برتغالي ولعل ولاءه الشديد لملك البرتغال كان واضحًا في معظم صفحات رحلته، ولذا نجد أنَّ المؤرخ جون ونتر جونز (John Winter Jones) الذي قام بالترجمة الكاملة لرحلات فارتيما إلى اللغة الإنجليزية قد أورد في أثناء سرده لطبعات رحلة فارتيما باللغات المختلفة عنوان كتاب فرنسي نشر سنة ٩٦٣هـ (١٥٥٦م)، شمل جانبًا من رحلة فارتيما أدرج ضمن مجموعة رحلات الرحالة البرتغاليين، وكان عنوان ذلك الكتاب كما أورده جون ونتر جونز هو (وصف أفريقيا، ثالث أجزاء العالم) والجزء الثاني كان عن رحلات الرحالة البرتغاليين وأدرج فارتيما معهم[١٢].

كما يضيف عبدالرحمن الشيخ أنه مع كل هذا الغموض الذي يحيط بحياة رحَّالتنا، فهناك إجماع على أنه ولد في بولونيا (Bologna) بإيطاليا، وأنه رحل منها إلى البندقية، وأنه ذكر هو في رحلته أنَّ والده كان طبيبًا، ويميل بادجر أنه كان عسكريًا لاهتمامه الكبير في رحلته بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية، كما نعلم من حديثه أنه كان زوجًا وأبًا[١٣]. ولندرة المعلومات عن فارتيما أصلاً فإنه لا توجد مؤلفات أخرى لفارتيما سوى رحلات فارتيما هذه المشهورة باسمه، بل إنَّه يوجد غموضٌ حتى في نهاية حياته وليس هناك معلومات سوى ما أفادت به الموسوعة البريطانية التي حددت سنة وفاته في عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م)، بدون تحديد المكان الذي توفي فيه[١٤]. ويشير روبن بدول بأنَّه قد

---

(٨) Encyclopedia Britannica , Micropaedia , Vol. 12, Art: Vartema , Lodovico do نقلاً عن عبدالرحمن عبدالله الشيخ، «لودوفيكو دي فارتيما، الحاج يونس المصري الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة سنة ١٥٠٣م»، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، الآداب(٢)،١٤١٢ هـ(١٩٩٢م)، ص ٥٦٥.

(٩) هو: المستشرق بادجر جورج برسي ولد سنة ١٨١٥م. وتلقى العلم في معهد جمعية المرسلين في ايسلنجتون بلندن وقضى شطرًا من شبابه في مالطة، وقد زار الجزيرة العربية، وعين مرشداً دينياً لمنشأة بمباي التابعة لشركة شرقي الهند، ومرشدًا لجيش السير جميس أوترام، وقد أوفد إلى زنجبار. كانت وفاته سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م). (نجيب العقيقي. المستشرقون: موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، ط٤، القاهرة: دار المعارف،١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج٢، ص٥٨).

(١٠) فارتيما. رحلات فارتيما. - ص ١٠.

(١١) رحلات فارتيما.- ص ١٠.

(١٢) عبدالرحمن عبدالله الشيخ، «لودوفيكو دي فارتيما، الحاج يونس المصري» مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع،ص ٥٥٩.

(١٣) رحلات فارتيما.- ص ١٠.

(١٤) Encyclopedia Britannica , Micropaedia , Vol. 12, Art: Vartema , Lodovico do. نقلاً من عبدالرحمن الشيخ، لودوفيكو دي فارتيما "الحاج يونس المصري" مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، ص ٥٦٥.

يكون قُتل بعد عودته لإيطاليا، بسبب أن طموحاته الكبيرة أكبر من مستواه على حد قوله حيث قال: "لقد رجع فارتيما إلى روما في شتاء ٩١٣ - ٩١٤هـ (١٥٠٨م - ١٥٠٩م) وظهر كتابه هناك، وقد أهداه إلى دوقة إيطاليا، وبعد ذلك لم نسمع عنه شيئًا، وربما يكون قد قتل بسبب طموحاته إلى مستوى أعلى من مستواه[١٥]. ولذلك لم يكن لنا مصادر نستفيد منها عن فارتيما سوى رحلته وبعض من المعلومات النادرة التي ذكرها عنه بعض الباحثين المحدثين.

المبحث الثالث: التعريف برحلته وكتابه:

بداية أشير إلى أنَّ الرحالة لودوفيكو دي فارتيما على الرغم من جنسه الإيطالي إلا أنه كان يعمل لحساب ملك البرتغال، الذي موّل رحلته، والذي قدّم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفروسية، وضمّه لجيوشه المحاربة أحياناً، لذلك فإن بعض المصادر تشير إليه على أنه رحالة برتغالي، تماماً مثل كولمبس الذي تعارف الناس أنه رحالة إسباني مع أنه من أصول إيطالية.

وهنا أشير إلى رحلة فارتيما بالتحدث عن دوافعها، وتاريخها وفق الآتي:

أما دوافع الرحلة ووفقًا لما سجله ضمن تفصيلات الرحلة ومضامينها، فإنَّ الهدف الأساس منها هو تجسسه لحساب البرتغال في العصر الذي بدأت فيه دولة البرتغال محاولات التوسع والسيطرة على بقاع عدة في العالم وخاصة الإسلامي منه.

وأوافق الدكتور عبدالرحمن الشيخ مترجم الرحلة للعربية بأنَّ رحلة فارتيما هي الجناح البري لجهود البرتغاليين في اكتشاف الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامّة، وجهودهم كذلك في تطويق العالم الإسلامي استمرارًا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد، وأنها تزامن رحلة فاسكو دي جاما البحرية، وكما نجح الأخير في كشف طريق رأس الرجاء الصالح، فقد نجح فارتيما في كشف الطريق من أوروبا حتى الهند برًا مرورًا بحواضر المسلمين الكبرى وهو عمل شديد الخطورة مهد لخطوات استعمارية تركت أثراً بعيد المدى في تاريخ العالم الإسلامي أجمع[١٦].

ويناقش عبد الرحمن الشيخ الظروف التاريخية التي تمت خلالها الرحلة فيقول: إن معرفة الظروف التاريخية التي تمت خلالها الرحلة ضرورية لفهم هذه الرحلة والاستمتاع بها، لقد كان لابد لأوروبا في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر أن تعيد تقويم معارفها عن العالم الإسلامي وأن تعيد ترتيب أوراقها لمواجهته بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أسباب عملية ملحّة تلحّ على الأوربيين لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة في العالم الإسلامي خاصة، فالتاريخ الأوربي الحديث –كما يذكر أكتون -(Acton) يبدأ تحت مطارق العثمانيين المسلمين، فالدور الإسلامي في تشكيل التاريخ الأوروبي لم ينته بنهاية العصور الوسطية وإنما استمر فاعلاً مؤثرًا في التاريخ الحديث، فقد أسهم المسلمون في تشكيل التاريخ الأوروبي - في أوروبا ذاتها- بقدر قريب من إسهام الأوروبيين في تشكيل تاريخنا الحديث.

ويتحدث الدكتور عبد الرحمن الشيخ عن القرصنة في البحر الأبيض المتوسط والتي ظهرت بعض سقوط غرناطة ويناقش تأثيرها على اقتصاديات بعض الدول الأوربية مثل إيطاليا وأسبانيا والبرتغال، كما يبين د. الشيخ أن فارتيما كان يقسّم المسلمين إلى مسلمين ومماليك، ويعني بالمماليك هؤلاء البيض الذين تحولوا إلى دين الإسلام، ويعزي الشيخ ذلك إلى تعصّب فارتيما وثقافته، كما يتحدث الشيخ عن تغلغل المسلمين العثمانيين في عمق القارة الأوربية ويبين أنَّ المسلمين واليهود الذين طردوا من الأندلس وجدوا ملاذًا أمانًا لدى الدولة العثمانية.

يقول فارتيما: "إن الرغبة التي دفعت الآخرين لمشاهدة دول العالم المختلفة، هي نفسها التي دفعتني للقيام برحلاتي هذه. ولما كانت كل البلدان مطروقة على نحو كبير بالنسبة لشعبنا، فقد فكرت أن أرى البلاد التي لم يراها أهل البندقية، أو لم يترددوا عليها كثيرًا. ولذا نشرنا أشرعتنا في يوم ذي ريح مواتية، طالبين من الله المساعدة، وأسلمنا أنفسنا للبحر".

وفي عدن اتهم فارتيما صراحة بالتجسس لصالح البرتغاليين، وذلك يوضحه النص الآتي: «وفي اليوم الثالث بعد القبض علينا أقبل أربعون أو ستون شخصًا من المسلمين - كان البرتغاليون قد استولوا على سفنهم - يهرولون نحو القصر وكان المهرولون قد هربوا من قبضة البرتغاليين بأن وصلوا سباحة إلى قرب الشاطئ، وقد ذكر هؤلاء الناجون أننا قدمنا إلى عدن كجواسيس، وبسبب ذلك أقبلوا نحو القصر

---

(١٥) روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة: د. عبدالله آدم نصيف، د.ط، الرياض: مطبعة جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م)، ص٢٥.

(١٦)رحلات فارتيما.- ص ٩.

وهم في حالة هياج هائل، وأسلحتهم في أيديهم - لقتلنا - ولكن الحراس أسرعوا بإغلاق الأبواب[١٧].

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا ومتواترة في رحلته إلى الهند وغيرها من البلاد الإسلامية، والدليل الأقوى على أنَّ فارتيما كان يعمل لحساب البرتغال أنَّه قَدَّم في نهاية رحلته تقريرًا كاملاً عن هذه الرحلة وما جرى فيها إلى ملك البرتغال، وقد أبقاه ملك البرتغال في بلاطه أيامًا عدة، وقد سجّل هو نفسه ذلك حينما وصل لشبونة في النص الآتي: "وعندما وصلت إليها ذهبت لتقبيل يد عظمته الذي أحاطني برعاية فائقة منه، واستبقاني عدة أيام في بلاطه ليسمع مني عن أمور الهند، وبعد بضعة أيام أظهرت له براءة وثيقة الفروسية التي منحني إياها نائب الملك (نائبه) في الهند، متوسلاً إليه، إذا رغب أن يعتمدها، ويوقعها بيده ويختمها بختمه، وعندما رآها ذكر لي أنه يسعده ذلك، وتناول مني الوثيقة التي خطت على الجلد الرقيق (رق Parchment) ووقع عليها بيده ووضع عليها ختمه، وتمّ تسجيلها، ومن ثمَّ استأذنت عظمته في الرحيل، ووصلت إلى مدينة روما[١٨].

وقد أصدر كتابه الذي يعد الوحيد من نوعه المكتوب بلغة أوروبية عن الجزيرة العربية آنذاك، وطبع كتابه بالإيطالية في روما عام ١٥١٠م و١٥١٧م، (٩١٥ و٥٢٢هـ) وفي البندقية عام ١٥١٨م و١٥٣٥م (٥٢٣ و٩٤١هـ)، وفي عام ١٥٦٣م (٩٧٠هـ). وجاءت أول ترجمة للإنجليزية عام ١٥٧٦- ١٥٧٧م (٩٨٤هـ) في تاريخ الرحلات لريتشارد إيدن، وظهرت مقتطفات من كتابه في كتاب بورتشاس "رحلة الحج" عام ١٦٢٥- ١٦٢٦م (١٠٣٥هـ) وفي نسخة "جمعية هاكلوت" للكاتب جي دبليو جونز و جي بي بادجر عام ١٨٦٣م (١٢٧٩هـ)[١٩]. وظل هذا الكتاب هو الوحيد في أوروبا حتى عام ١٧٠٤م (١١١٥هـ) حين نشر الرحالة الإنجليزي جوزيف بتس (الحاج يوسف) كتابه (رحلة جوزيف بتس الحاج يوسف إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة).

المبحث الرابع: وصف مكة ومظاهر الحج في هذه الرحلة:

إنَّ الرحلة التي قام بها فارتيما هي رحلةٌ طويلة حول العالم، استمرت ما يقارب ست سنوات، قدَّم فيها نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج العربي وبلاد فارس، باعتباره (الحاج يونس المصري أو يونس المملوك المصري)، أمَّا في بلاد الهند فقد قدَّم نفسه باعتباره (الحاج يونس العجمي/ الفارسي) وذلك بمعاونة صديق له فارسي كان قد تعرّف به في مكة المكرمة[٢٠].

وقد دوَّن رحلته في أسفار ثمانية، يخصنا منها هنا السفر الثاني الذي أطلق عليه عنوان (عن بلاد العرب الصحراوية) وكتبت في النسخة المعرَّبة في الصفحات (من ٣٣ حتى ٦٢) بدأها بعنوان: (الطريق من دمشق إلى مكة المكرمة) وبسط فيه دخوله إلى الجزيرة العربية من بلاد الشام بعد أنْ كان في مصر، وبهذا يتضح أنَّ الطريق الذي سلكه مع أنه لم يفصل في منازله ومراحله، هو طريق الحاج الشامي حيث قدم من دمشق بعدما وصفها وأثنى عليها وتطرق إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية فيها[٢١]،وقد أوضح فارتيما أنَّه في اليوم الثامن من شهر أبريل (١٥٠٣م) وهذا يوافق الحادي عشر من شهر شوَّال لعام ٩٠٨هـ ، حينما توقفت القافلة كي تتوجه صوب مكة[٢٢].

ويمكن أن أبسط هذا المبحث في أقسام تتابعية ثلاثة على النحو الآتي:

القسم الأول: في الطريق إلى مكة:

وأشار فارتيما إلى انخراطه بتلك القافلة ودوافعه وحيلته في ذلك بقوله: "ونظرًا لأنني كنت شغوفًا بالاطلاع على المناظر والأوضاع المختلفة، ولم أكن أعرف ما هو السبيل لذلك، لذا فقد كوَّنت صداقة عميقة مع القائد المملوكي للقافلة الذي كان في أصله مسيحيًا تحوّل للإسلام لكي يلبسني لباس المماليك ويعطيني حصانًا جيدًا ويجعلني بصحبة المماليك الآخرين، وقد حققت كلَّ هذا بأن دفعت له أموالاً وأشياء أخرى[٢٣].

---

(١٧) فارتيما، رحلات فارتيما، ص٦٨.

(١٨) فارتيما، رحلات فارتيما، ص٢١٤.

(١٩) ريغينالد هيو كيرنان. كشف اللثام عن جزيرة العرب: قصة الترحال والكشوف في أنحاء الجزيرة، ترجمة بشر العظمة، تحرير وتعليق: أحمد إيبش، ط١..أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة: دار الكتب الوطنية، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م)، ص ٧٩.

(٢٠) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٩، مقدمة المحقق.

(٢١) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٢٦ .٣٢.

(٢٢) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٣٥.

(٢٣) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٣٥.

وهنا شارة الانطلاق إلى مكة، حيث بدأها فارتيما بقوله: "وعلى هذا اتخذنا طريقنا مسافرين ثلاثة أيام إلى موضع يقال له المزيريب[٢٤] (Mezeribe) حيث مكثنا فيه ثلاثة أيام كي يشتري التجار ما يحتاجون[٢٥].

وقد قَدَّر فارتيما المدة الزمنية من دمشق بأربعين نهارًا وأربعين ليلة، ومما يلاحظ على فارتيما أنَّه لم يُوضِّح ويفصل في مراحل الطريق ومنازله وأنَّ ما ذكره كان مختصرًا حيث إننا نجده عندما اتجه إلى مكة من دمشق استمر في السير مع الركب الشامي حتى وصلوا إلى المزيريب التي أسهب في الحديث عنها وبيَّن أنَّ العرب فيها لهم شيخٌ يدعى الزغبي وله أخوة ثلاثة وأربعة أولاد، وأنَّه يمتلك ٤٠,٠٠٠ ألف حصان و ١٠,٠٠٠ فرس، وله فيها من الإبل ٣٠,٠٠٠ وأوضح أنَّ له قوة وسطوة حتى أنَّه يفكر في شن حرب ضد سلطان القاهرة وحاكم دمشق وحاكم القدس[٢٦] مما يُظهر مكانته القوية في المنطقة وسيطرته عليها.

ثم بيَّن أنَّ في المزيريب مخازن للغلال يوضع فيها الشعير وغيرها من المؤن الأخرى وتكون في غرار وبوضع آمن[٢٧] ومن خلال هذا يتضح أنها من منازل الحاج الشامي المهمة التي لم يحدث عن غيرها مع كثرتها وما ذلك إلا دليل على أهمية هذه المنزلة في ذلك العصر حيث كان الحجاج لبيت الله والقوافل التجارية تستفيد منها أكثر من غيرها في التزود بالمؤن والتخزين للمواد لوجود المخازن الكبيرة بها والأمن الوافر فيها[٢٨].

وفي اليوم الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٥٠٣م الموافق للسابع عشر من شهر شوال لسنة ٩٠٨هـ غادرت القافلة المزيريب مستمرة في مواصلة الطريق، مع أنَّ فارتيما لم يوضح المنازل والمراحل حتى وصل إلى مدينة سدوم[٢٩] وعاموراء[٣٠] وذلك بعد اثني عشر يومًا من سفرهم من المزيريب، وقد بدأ فارتيما في وصفها وتطرق إلى أنَّ الله عاقب أهلها حتى خربت ديارهم بسبب كفرهم بنعم الله سبحانه، أما خراب الديار فقد عبر عنه بقوله: «فالمرء يرى رأي العين أنهما قد خربت نكالاً من الله... أنني أعتقد. بناءً على ما رأيت. أنَّ شعبًا شريرًا كان هنا فكل ما يحيط بهذه البقعة صحراء قاحلة، فالأرض موات لا تنبت ما يؤكل، والماء معدوم، وقد كانوا يعيشون على المن Manna وقد عاقبهم الله لأنهم كفروا بأنعمه... فحاق بهم عذابه وترك الله ديارهم خراباً لتراها الأجيال»[٣١].

ومما يلحظه الباحث على فارتيما أنَّه لا يذكر المراحل التي يمر بها، إذ لم يذكر بعد سدوم مرحلة واحدة حتى ذكر لنا ذلك الجبل الذي يسكنه اليهود بالقرب من المدينة[٣٢]، ويحدد فارتيما المكان باعتباره يبعد عن المدينة ثلاثة أيام مما يجعل هذا المكان هو هَدِيَّة[٣٣] المذكورة في خط سير رحلة بوركهارت باعتبارها محطة التوقف الرابعة والعشرين لطريق الحاج الشامي[٣٤] والتي تبعد عن خيبر أربع ساعات[٣٥]، وأوضح فارتيما أنَّ هذا الجبل رأى فيه ما بيَّن أربعة آلاف وخمسة آلاف يهودي يروحون ويجيئون عراة ويبلغ طول الواحد منهم خمسة أشبار أو ستة أشبار وأصواتهم كأصوات النساء ويغلب عليهم السواد ولا يأكلون إلا لحوم الغنم ويعترفون بأنهم يهود، وإذا ما وقع أحد من المسلمين بين أيديهم سلخوه حياً[٣٦]. وفي الواقع أنَّ العقل عندما يتأمل هذه العبارات لا يقبلها على رمتها؛ لما فيها من المبالغة التي تشك في صدق وجود

---

(٢٤) المزيريب: بلدة في أقصى جنوب سوريا وهي تعد جزئًا إداريًا من محافظة درعا، وتقع شمال غرب مدينة درعا على مقربة من الحدود السورية الأردنية، وتحمل اسمها هذا إلى الآن، وتوجد قرب نهر عويرض بالقرب من بحيرة المزيريب قرب دائرة ٤٣ً – ٣٢، شمالاً وخط طول٢ـ – ٢٦ْ شرقًا في شمال الأردن. (سيد عبد المجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، سلسلة الكتاب الجامعي، ط١، جدة: مكتبة تهامة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٨٤).

(٢٥) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٣٥.

(٢٦) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٣٥.

(٢٧) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٣٦.

(٢٨) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٣٦.

(٢٩) سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، وهي وما حولها المؤتفكات وكانت خمس قريات، وسدوم هي القرية العظمى، وهي كلها خراب لا أنيس بها، وإلى أهلها أرسل الله سبحانه نبيه لوطاً عليه السلام، والحجارة الموسومة موجودة فيها يراها السفر سوداء براقة. وكان في كل قرية منها مئة ألف، ويضرب المثل بجور أحكام قاضي سدوم، وهي بأرض الشام، وسدوم هي القرية العظمى التي أمطرت مطر السوء المذكور في القرآن في سورة الفرقان، آية رقم ٤٠. (الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (ت ٩٠٠هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق، إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٠٨).

(٣٠) عاموراء كلمة عبرية: وهي من قرى قوم لوط وهي من أعظمها. (الحميري، الروض المعطار، ص٣٠٨).

(٣١) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٣٨.

(٣٢) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٣٥.

(٣٣) هَدِيَّة: توجد إلى الجنوب من جبل حملة وإلى الشمال من الثلوب قرب دائرة عرض ٣٣ً. ٢٥ْ شمالاً وخط طول ٤٤ـ – ٣٨، شرقاً. (سيد بكر. الملامح الجغرافية، ص٢٠٩).

(٣٤) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٤٠، الحاشية رقم ١٣.

(٣٥) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٤٠، حاشية رقم ١٣.

(٣٦) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٤٢.

اليهود في هذا الموقع في هذا العصر وخاصة أنَّ بعض الرحالة الغربيين من شكك فيها مثل (بادجر) حيث ذكر أنَّه من غير المعقول أنَّ يكون طول اليهودي خمسة أشبار أو ستة وعزا ذلك إلى سوء تقدير فارتيما أو لنقله معلومة خاطئة[٣٧].

وفيما يتعلق بمخاطر الطريق، لاحظ أن العشائر البدوية غير المنظمة ألفت مهاجمة قوافل الحج؛ بغرض الحصول على اتاوات بزعم أن المناطق التي يقيمون فيها هي أملاكهم الخاصة ومن يمر بها عليه أن يدفع مقابل ذلك، وإلا تعرضت قافلته للنهب وبخاصة إذا كانت قليلة التأمين. ومما لاحظه فارتيما على الجماعات المهاجمة أنه على رغم كثرتها إلا أنها غير منظمة، وفقيرة التسليح وبالتالي كان عدد ضحاياهم من الهجوم على القوافل بخاصة جيدة التسليح كبيراً جداً. ففي معركة نشبت بين قافلة فارتيما المحمية بـ ٦٠ مملوكاً، لم يخسر الحجاج أكثر من رجل وامرأة بينما فقد البدو ١٦٠٠ قتيل، كما نشب قتال بين حرس القافلة والبدو بين المدينة ومكة المكرمة وتغلب القائمون على حراسة القافلة على المهاجمين بسهولة. ومن أهم ملاحظات فارتيما، ما ذكره حول مصادر المياه بالطريق التي تنوعت بين الحفر في التربة الرملية أو الطينية إذا صادفتهم أو الحصول على الماء من أحواض المياه التي أقيمت بغرض الصدقة من المحسنين في هذه البقاع القاحلة.

القسم الثاني: وصف مكة والمسجد الحرام:

ومن المدينة اتجه فارتيما مع القافلة إلى مكة، ومع أنَّه لم يتطرق إلى المراحل والمنازل المعروفة بيَّن مكة والمدينة، إلا أنَّه عندما وصل مكة وصفها وصفًا رائعًا، حيث ذكر بأنَّها رائعة الجمال وقد حسن بناؤها وتضم حوالي ستة الآف أسرة ومنازلها جيدة تمامًا وقد قارنها بمنازل إيطاليا، وأسهب في الوصف وهذا ليس بمستغرب على شخص غربي لم يسبق له دخول مدينة مكة التي تجذب قلب كل من يدخلها[٣٨].

واتساقا مع المهمة الأولى التي جاء من أجلها رصد دي فارتيما أولا حالة النزاع السياسي العسكري الذي نشب بين أشراف مدينة مكة، وفي وصفه لموقع مدينة مكة ذكر أن غضب الرب حل عليها لأن المنطقة المحيطة بها لا تنبت عشبا ولا شجرا!! حيث يعاني أهلها من النقص الشديد في المياه، وأن السلع والبضائع تصل إلى مكة من اليمن وإثيوبيا وكذلك الهند والبنغال، ورصد حركة تجارية كبرى في مكة المكرمة، ولاحظ أعداد وجنسيات المسلمين الذين وصلوا للحج من الشام ومصر وكذلك من إثيوبيا وبلاد فارس، وأبدى عجبه من كثرة أعداد الحجاج لدرجة أنه قال: "والحق أقول لكم إنني لم أر أبدًا تجمعًا هائلاً احتشد في مكان واحد، كما رأيت هنا في مكة خلال العشرين يومًا التي مكثتها في هذا البلد[٣٩].

في المسجد الحرام:

بعدها أخذ يصف المسجد الحرام بانبهار شديد، حيث ذكر أنه في وسط مكة يوجد معبد جميل يشبه (الكولوزيوم) في روما إلا أنه غير مبني من الحجارة الضخمة وإنما من الطوب الأحمر، وله تسعون باباً أو مئة باب، ذات أقواس (عقود)، ويواصل وصفه بقوله: "وعند دخولنا هذا المعبد (المسجد) انحدرنا عشر درجات أو اثنتي عشرة درجة، وحول هذا المدخل كان يجلس باعة يبيعون الجواهر ولا شيء غير الجواهر، وعندما تنزل الدرجات المذكورة تجد كلَّ أنحاء هذا المسجد، وكلَّ شيء حتى الجدران مغطاة بالذهب، وتحت أقواس المسجد يجلس حوالي ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ إنسان رجالاً ونساءً يبيعون مختلف لأنواع المواد العطرية غالبها مساحيق لحفظ الأبدان وإنعاشها[٤٠].

ويواصل انبهاره بقوله: "والحق أقول لكم أنه من الصعب أن أصف لكم روعة الروائح التي شممتها في هذا المعبد (المسجد) أنها تظهر كرائحة مشبعة بالمسك زاخرة بأكثر العطور إنعاشًا وإبهاجًا[٤١].

ولفت نظره شكل الكعبة المشرفة وهي تتوسط المسجد الحرام، فوصفها بأنها برج (Tower) تبلغ أطوال كلَّ أضلاعه الأربعة ست خطوات، وقد غطى هذا المبنى بالحرير الأسود (الكسوة)، وبه باب من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان عن طريقه يمكن دخول الكعبة، وعلى جانبي الباب جرتان يقال إنهما مليئتان بالبلسم من إهداء السلطان. وعند كل ركن من أركان الكعبة توجد حلقة كبيرة[٤٢].

---

(٣٧) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٤٠، حاشية رقم ١٣.

(٣٨) فارتيما. رحلات فارتيما، ص٥١.

(٣٩) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٣،٥٢.

(٤٠) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٤،٥٣.

(٤١) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٤.

(٤٢) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٥،٥٤.

ووصف الطواف وصفًا مقتضبًا، بقوله: "وفي الرابع والعشرين من شهر مايو يبدأ كلّ الناس قبل طلوع النهار في الطواف حول الكعبة سبعة أشواط، وهم في هذه الأثناء يتمسحون بأركانها ويقبلونها (أي الكعبة)[٤٣]. وهنا لم يشر إلى أيّ طواف يقصد، ولعله طواف الإفاضة حسب سياق تواريخه.

وهنا يلفت نظري أنه لم يتحدث عن مشاركته الحجيج أيًّا من مناسكهم كما أنه لم يكن يلفت نظره تفاصيل المناسك وإتمامها، وهذا مؤشر مهم على قصد رحلته، وتخفيه بالإسلام لبلوغ قصده.

ويعود فارتيما للتخبط والبلبلة من جديد ومن منطلق خلفيته ومعتقده حينما يذكر أنَّ المسلمين يحتفلون في الثالث والعشرين من شهر مايو تبدأ احتفالات الغفران في المسجد الحرام، ويعلّق مترجم الرحلة بقوله: "ليس في الإسلام عيدٌ بهذا الاسم، وفارتيما مرة أخرى يسقط ثقافته المسيحية على التاريخ الإسلامي، أو يقرّب المعنى لقرائه المسيحيين[٤٤].

ثم يتحول إلى وصف بئر زمزم قائلاً: "وعلى بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من الكعبة يوجد برج آخر يشبه إحدى مصلاة كنائسنا أو كاتدرائياتنا (Chapels)، ذو ثلاثة أبواب أو أربعة داخله بئر رائعة تبلغ سبع فازومات (Fathoms) عمقًا، وماؤها مالح قليلاً. وعند هذه البئر يقف ستة رجال أو ثمانية لسحب المياه للناس. وعندما ينتهي الناس من الطواف سبعة أشواط حول الكعبة يأتون هذه البئر ويولونها ظهورهم ويقولون "بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم اغفر لنا"، ويقوم أولئك الذين يسحبون الماء من البئر (بئر زمزم) بصبّ ثلاثة جرادل "صفائح" (Bucketsful) على كل شخص من الحجاج من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، فيستحم الجميع، بهذه الطريقة حتى الذين كانت ثيابهم من حرير، ويقولون أنهم بهذه الوسيلة يتخلصون من خطاياهم التي تبقى في هذا الموضع بعد الاستحمام[٤٥].

ويواصل فارتيما بثّ شكوكه وشبهاته وهمزه ولمزه بقوله: "ويقولون إنَّ البرج "الكعبة" التي طافوا بها عند قدومهم هي أول بيت وضع للناس، وإنَّ إبراهيم الخليل هو بانيها[٤٦].

القسم الثالث: وصف مظاهر الحج:

ويختصر دي فارتيما مناسك الحج بقوله: "وبعد أن استحم الجميع بهذه الطريقة، فإنهم يتجهون إلى الوادي عند الجبل الذي سبق أن تحدثنا عنه، ويمكثون هناك يومين وليلة وهم يشرعون في الذبح (تقديم أضحياتهم) عندما يكونون على سفح هذا الجبل[٤٧].

ويواصل فارتيما وصفه الحج والمشاعر بانطباعات مقتضبة لا تخلو من خلفيته الكنيسية التي لا تليق بهذه الشعيرة العظيمة، وذلك وفق الوقفات الآتية:

- تحدث عن الهدي والأضاحي وذكر أن كل حاج رجلاً كان أم امرأة كان ينحر رأسين أو ثلاثة على الأقل بل إنَّ بعضهم ينحر أربعة، وبعضهم ينحر ستة من الأغنام؛ ولهذا فهو يعتقد أن الحجاج في هذا العام ٩٠٨ هـ- ١٥٠٣ م نحروا ما يقارب من ثلاثين ألف رأس من الغنم، كما ذكر أنَّ عشرات الآلاف من الفقراء استفادوا من هذه اللحوم. وليته وقف عند هذا الحد بل إنه يجزم بأنَّ هؤلاء الفقراء إنما قدموا إلى هذا المكان رغبة في التخلص من الجوع أكثر من رغبتهم في المغفرة[٤٨].
- كما تحدث دي فارتيما بعد أن أخطأ في ترتيب أيام الحج عن وقفة عرفات وعن الخطبة التي استمرت زهاء الساعة استطاع فيه الخطيب حث الحجاج على البكاء والاستغفار لخطاياهم، وأضاف أنَّ خطيب وقفة عرفات ذكر أن إسحق اختاره الله سبحانه وتعالى للذبح فداء لشعب الله وهو هنا يخلط بين خلفيته المسيحية التي ترى أن الذبيح في قصة الفداء هو إسحق ولا بد أن خطيب عرفات قد ذكر أن الذبيح هو إسماعيل حسب الفكر الإسلامي (ويغالط فارتيما كثيرًا من الحقائق والمسلمات)[٤٩].

---

(٤٣) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(٤٤) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٤.

(٤٥) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٥، وربما قصد بالحرير لباس الإحرام، فهو يجهله.

(٤٦) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(٤٧) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(٤٨) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٦.

(٤٩) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٦. ٥٧.

- لاحظ دي فارتيما كثرة الحمام الموجود بسلام في مكة المكرمة لدرجة أنه قدر أعداده ما بين ١٥- ٢٠ ألفا، إلا أنه يشطح مرة أخرى بقوله: "أنها من سلالة الحمامة التي تحدثت إلى محمد ﷺ، وكانت في حقيقتها هي روح القدس متقمصة شكل حمامة[٥٠]. وأضاف أنه يطير في كافة أرجاء مكة بأمان تام، ولا يجرؤ أحد على إيذائه، ليس هذا بل يعود إلى مخيلته، وينفث أساطيره بقوله: "وإذا حدث أن ضرب واحد منهم إحدى هذه الحمامات، فإنَّ الرعب يملأه خوفًا من خراب البلد[٥١]. على الرغم من أنَّ هذا الحمام يلحق التلف داخل المسجد الحرام على حدّ زعم فارتيما[٥٢].
- ولاحظ دي فارتيما شيئًا لم يتحدث عنه باقي الرحالة الأجانب من أنه شاهد في موضع آخر من المسجد الحرام مكانًا مسورًا يوجد به اثنان من حيوان وحيد القرن على قيد الحياة، وبعد أن يصفهما بانبهار يشير إلى أنهم تلقاهما شريف مكة هدية من قبل ملك إثيوبيا تعبيرًا عن ولائه لسلطان مكة باعتبارهما أطرف وأجمل ما في العالم[٥٣].

بعد كلُّ هذا كاد أن ينكشف أمره حينما اشتبه به أحد التجار المسلمين الذين يعرفون الإيطالية، فعندما كان فارتيما في مكة في ختام زيارته لها دار بيَّنه وبيَّن رجل من أهلها هذا الحوار الذي سجله بنصه قائلاً: "فقد أصبح ضروريًا أن أعمل فكري للهرب من قافلة مكة. فعندما كنت ذاهبًا لاستبضاع بعض الأشياء لرئيس القافلة تعرف علي أحد المسلمين (a Moor) إذ تفرس في وجهي وقال لي: من أي البلاد؟ فأجبته إني مسلم (I am Moor). فقال لي: أنت كذاب، فقلت له (ورأس النبي أنا مسلم)، فقال لي تعالى معي إلى منزلي، فذهبت معه وعندما وصلت إلى منزله تحدّث إليّ بالإيطالية، وأخبرني أنه كان في وقت سابق في جنوة (Genoa) والبندقية (Vinice) ووصفهما لي دليلاً على صدقه، وعندما سمعت ذلك أخبرته بأنني إيطالي (Roman) وأنني أصبحت مملوكًا في القاهرة، وعندما سمع ذلك سرَّ له كثيرًا، وراح يعاملني باحترام واعتزاز كبيرين[٥٤].

وقبل أن يغادر دي فارتيما مكة المكرمة مارس أيضًا دوره الرئيسي وهو التجسس على أحوال مكة الاقتصادية تحت حكم المماليك، وذلك عبر طرح بعض الأسئلة المدروسة على ذلك التاجر، فسأله عن الجواهر والبهارات التي تشتهر بها أسواق مكة، وكذلك أين مختلف أنواع السلع والبضائع التي كانت تمتلئ بها أسواق مكة. ويعترف فارتيما بذلك بما نصه: "ولأنَّ قصدي أن أحصل على أكثر من هذا، فقد شرعت في استدراجه قائلاً: ما إذا كانت هذه هي مكة المكرمة ذات الصيت الذائع عبر العالم كله؟ فأين الجواهر؟ وأين البهارات؟ وأين مختلف أنواع البضائع التي قيل إنها تتخذ سبيلها إلى هذا المكان؟ لقد ألقيت عليه هذا السؤال فقط عساه يخبرني لمَ لم تعد هذه البضائع والأشياء تصل إلى هنا، كما جرت العادة قبل ذلك، ولم أشأ أن أسأله ما إذا كان ملك البرتغال هو السبب، فقد كان الملك البرتغالي هو سيد المحيط الإطلنطي (Mare Oceano) وسيد الخلجان الفارسية والعربية، وعندئذ بدأ يخبرني بالتدريج عن سبب عدم وصول البضائع التي سبق أن أشرت إليها مثلما كانت تصل قبل ذلك، وعندما أخبرني أنَّ الملك البرتغالي هو السبب تظاهرت بالحزن العميق، وأرسلت فيضًا من السباب لهذا الملك البرتغالي مخافة أن يكتشف سعادتي لنجاح المسيحيين في إتمام هذه الرحلة[٥٥].

وفي ختام رحلته من مكة اتجه فارتيما ومَنْ معه إلى جدة ومنها إلى بلاد اليمن التي كان يسميها بلاد العرب السعيدة ومنها إلى بلاد فارس ثم إلى بلاد الهند ومنها إلى سواحل شرق إفريقيا ثم إلى رأس الرجاء الصالح ثم عبر المحيط الأطلسي: ثم إلى لشبونة ومنها إلى مدينته روما في شتاء ١٥٠٨- ١٥٠٩م، وظهر كتابه هناك وقد أهداه إلى دوقة إيطالية، وبعدها انقطعت سيرته، ولم يُعلم مصيره، ويشير (روبن بدول) إلى أنه ربما يكون قد قُتل بسبب طموحاته إلى أرفع من مستواه[٥٦].

---

(٥٠) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٨.
(٥١) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٨.
(٥٢) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٨.
(٥٣) فارتيما. رحلات فارتيما، ص ٥٩.
(٥٤) فارتيما، رحلات فارتيما، ص٥٩.
(٥٥) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٥٩، ٦٠.
(٥٦) الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٢٤، ٢٥.

الخاتمة:

وبعد: وفي ختام هذه الورقة لعلها أوضحت لنا جانبًا من جوانب رحلة هذا الرحالة الإيطالي (لودفيكو دي فارتيما)، وبعضًا من محتوى رحلته فيما يتصل بالحج ووصف مكة، حين ترك لنا وصفًا مكتوبًا ضمن رحلاته، لا يخلو من تخالط الانطباعات والدلالات التي يمكن تسجيلها في الآتي:

- أنَّ هذه الرحلة تعدُّ باكورة جهود الرحالة الغربيين إلى مكة، إذ يعدُّ لودفيكو دي فارتيما أوّل رحالة أوربي تطأ قدماه مكة المكرمة حسب إشارة المصادر.
- حَرِص فارتيما كغيره من الرحالة على تعلُّم اللغة العربية واللهجات المحلية؛ للاندماج أو التستُّر في البلدان العربية. ويدل هذا على دأبِه وتفانيه من أجل الوصول إلى مبتغاهم. وقد تمكن فارتيما من التكيّف مع اللغة العربية بسرعة مذهلة ليفهم ما يدور من حوله.
- لم يُعر فارتيما وصف الأماكن جغرافياً اهتمامًا يُذكر، بل لم يُعط وصفًا دقيقًا للأماكن التي مرّ بها في طريقه إلى مكة، ولا لممارسة شعائر الحج بصورة دقيقة ومنتظمة، ربما لجهله في هذه الأمور، إذ كان شغوفاً بوصف الأشياء الغريبة التي حصلت له في رحلة الحج، ما أوقعه في مشاكل عدة مع السلطات والناس.
- رغم أنَّ فارتيما قد تسمى باسم (الحاج يونس المصري)، وأصرَّ على هذا أنه أسلم في مناقشته مع ذلك التاجر الذي وافاه في مكة، إلا أنني لم أجد في رحلته أي انتماء قولي أو فعلي يشفع له بأنه أسلم، فلم يذكر أنه أدى مناسك الحج مثلاً، أو دخل مع المسلمين في أيّ عبادة، بل على العكس كان حسه الانتقاد والانتقاص لمناسكهم. ولم ينجح في التخفي أو التخلص من معتقده في مختلف مشاهداته ومواقفه، وكفاه من هذا الاسم أنه أصبح جواز مرور لدخوله المدينة ومكة فحسب، حال عدد ممن جاءوا بعده، ولم ينكشف أمرهم. ومع هذا فإنَّ هناك مجموعة من الرحالة أسلموا وحسُن إسلامهم، ودافعوا عن الإسلام ومعتقداته بما دونوه في رحلاتهم.
- ارتباط هذه الرحلة كغيرها الكثير من الرحلات الغربية بالدوافع الاستعمارية والتنصيرية المكشوفة. ويمكن أن توسم بأنها تندرج ضمن رحلات التحامُل المكشوف على الإسلام والمسلمين بتصويرهم وكأنهم وحوش، يؤذُون مناسك شاقَّة جدًّا، يتخلَّلها كثيرٌ من مخاطر الطريق والأمراض والمجازفة. ورحَّالتنا هذا لم ينفكّ عن خلفيته الدينية، بل كان انطباعه إفرازًا تامًا لمعتقده.
- رغم ما حوته هذه الرحلة وصاحبها من روح المغامرة واكتِشاف المجهول بالنسبة له إلا أنها لا تخلو من المبالغة، التي قد تكون مؤثرة فيمن كتبت له الرحلة.
- يُرجّح أن يكون فارتيما قد خدم في بلاده عسكريًا قبل رحلته هذه؛ لأنه كان يلفت نظره أي شيء له ارتباط بالجيش والعسكرية، يؤيّد هذا اعترافه أنه أمهر صانع للمدافع الضخمة.
- في الواقع أنَّ رحلة فارتيما -مع أنها كانت تجسسيّة لصالح البرتغال على البلدان الإسلامية وغيرها من بلاد الشرق- إلا أنَّها أمدتنا بمعلومات يمكن أن يُستأنس بشيء منها عن الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية عن مقصد هذه الورقة الحج ووصف مكة بما أكسبها قيمة علمية مناسبة.
- لا تزال هناك مجموعة من كتب الرحالة. وهي تزخر بمعلومات تاريخية وحضارية وآثارية عن الجزيرة العربية، بما تستحقّ المزيد من القراءة والتأمل.

ختامًا، آمل أن أكون قد وفقت في طرق هذا الموضوع بجوانبه الأساسيّة، وأسأل المولى القدير أن يجعله عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون نواة لدراسات أشمل وأعم في مثل هذه الجوانب، وضمن مثل هذه المصادر. والله ولي التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

الجدول رقم (١) الرحالة الذين زاروا مكة المكرمة بين عامي ١٥٠٣ و١٨٩٤م

الرقم	الاسم بالعربية	الاسم باللاتينية	سنة الزيارة
١	لودوفيكو فارتيما (الحاج يونس)	Ludovico Bartema	١٥٠٣م
٢	فينسنت لو بلانك	Vincent Le Blanc	١٥٦٨م
٣	يوهان وايلد	Johann Wild	١٦٠٧م
٤	جوزيف بيتس	Joseph Pitts	١٦٨٠م
٥	باديا ليبلخ (علي باي العباسي)	Badia Y. Leblich	١٨٠٧م
٦	أولريخ ياسبر سيتزن (الحاج موسى)	Ulrich Jasper Seetzen	١٨٠٩-١٨١٠م
٧	يوهان لودفيج بوركهارت (الحاج إبراهيم)	John Ludwig Burckardt	١٨١٤-١٨١٥م
٨	جيوفاني فيناتي (الحاج محمد)	Giovanni Finati	١٨١٤م
٩	ليون روشيه (الحاج عمر)	Leon Roches	١٨٤١-١٨٤٢م
١٠	جورج أُوغسطس والين (ولي الدين)	George Augustus Wallin	١٨٤٥م
١١	ريتشارد بيرتون (الحاج عبدالله)	Sir Richard Burton	١٨٥٣م
١٢	إينريك فون مالتزان (عبدالرحمن بن محمد السكيكوي)	Heinrich Freiher Von Maltzan	١٨٦٠م
١٣	هرمان بيكتل (الحاج عبدالواحد)	Herman Bicknell	١٨٦٢م
١٤	جون فرايركين (الحاج محمد أمين)	John Fryer Keane	١٨٧٧-١٨٧٨م
١٥	كرستيان سنوك هورخرونيه (عبدالغفار)	Christian Snouk Hurgronje	١٨٨٥م
١٦	جيرفاس – كورتيلمون (الحاج عبدالله)	Gervas – Courtellemont	١٨٩٤م

المصدر: أغسطس رالي. مكة المكرمة في عيون رحّالة نصارى، نقله إلى العربية حسن سعيد غزاله، راجعه وعلّق عليه: محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، (١٤٣٠هـ)، ص ٢٣ - ٢٤.

المصادروالمراجع:

أولاً: المصادر:

- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (ت ٩٠٠هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق، إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، (١٩٨٠م).
- فارتيما، لودوفيكو دي. رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)/ ترجمة وتعليق عبدالرحمن عبدالله الشيخ.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

- كيرنان، ريغينالد هيو. كشف اللثام عن جزيرة العرب: قصة الترحال والكشوف في أنحاء الجزيرة، ترجمة بشر العظمة، تحرير وتعليق: أحمد إيبش، ط١..أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة: دار الكتب الوطنية، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م).

ثانيًا: المراجع:

- بدول، روبن، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة: د. عبدالله آدم نصيف، د.ط، الرياض: مطبعة جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م).
- بكر، سيد عبد المجيد، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ، ط١، جدة: مكتبة تهامة، سلسلة الكتاب الجامعي، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).
- رالي، أغسطس. مكة المكرمة في عيون رحّالة نصارى، نقله إلى العربية حسن سعيد غزاله، راجعه وعلّق عليه: محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، (١٤٣٠هـ).
- الحمامي، عبد الرزاق بن حبيب. المدينة المنورة والرحالة الأوربيون (دراسة نماذج)، ط١، المدينة المنورة: سلسلة إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ المدينة المنورة، ١٤٣٦هـ (٢٠١٥م).
- الشيباني، محمد بن عبد الهادي. أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية ضمن: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ط١، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ
- الشيخ، عبدالرحمن عبدالله، «لودوفيكو دي فارتيما، الحاج يونس المصري الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة سنة ١٥٠٣م»، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، الآداب (٢)..١٤١٢ هـ(١٩٩٢م)..ص ٥٥٧..٥٩.
- العقيقي، نجيب. المستشرقون: موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، ط٤، القاهرة: دار المعارف،١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- عيد، فارس أسعد. الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، دراسة ضمن: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ط١، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ